A L b a t o u l
رواية
في عنقها شامة
تأليف: البتول زكريا
Albatoul Zakrea

(في عنقها شامة)

رواية من وحي الواقع
مضاف إليها من وحي الخيال

الجمهورية العربية السورية

نوع : رواية

عنوان الرواية : في عنقها شامة

تأليف : البتول زكريا

تدقيق : البتول زكريا

تنسيق الداخلي : البتول زكريا

الطبعة الأولى
تاريخ النشر: 2024

جميع الحقوق محفوظة

(يمنع اقتصاص أي جزء من هذا الكتيب بهدف إهدار حقوق الملكية والفكرية أو إعادة إنتاجه إلا بموافقة الكاتب.)

في عنقها شامة

البتول زكريا

2024/1442

(الإهداء)

إلى رفاقِ الدّربِ منذُ الصغرِ وإلى يومنا الحالي،
من سيشد عضدي بهمْ إخوتي
" فواز وأحمد"

أميراتي وسرَّ بهجتي، دفئُ الأيّامِ بهم خواتي
" بيان وجنى "

إلى من يجلسُ في الجّانبِ الآخر من البحر
صديقُ طفولتي وأحد جنودَ جيشي
" أخي من الحياة علي "

*****

(المدخل)

(لا يشيء
يجعلنا
أغبياء
كما
يفعلُ
الحبّ.)

{ في عنقها شامة }

(المقدمة)

هل يعاقب اللذين يزرعون بعقولنا أفكارٌ وهمية؟!
تلك الأفكار التي تقود حياتنا إلى الهلاك.
لامستْ أنامل يدي الصغيرة عنقي لأشعر بتلك القبلة الحظية، وقلتُ يا لكم من أغبياء تصدقون تلك الأوهام القديسية.

*****

(العرض)

رواية في عنقها شامة رواية واقعية وأضيف لها من وحي الخيال.

_جود: كيف هذا؟!
أ يعقل أن أفكر في زوجتي في هذه الطريقة؟
وهل من الممكن أن أكون ظالم ماريا؟!
أ تخونني؟!
لا لا هي تحبني كثيراً.
لأتصل بوالدتي فهي الوحيدة من يضيء لي ظلمة الطريق هذا،
لأنني على يقينٍ تام بأن الأمهات مضحيات في السبيل.
الهاتف يرن ويتلقى رنينه على مسمعٍ خفيف،
توضع على السماعة يدٌ سمراء وبانت طرق الهلاك والهرم عليها، تضعها على إذنها بكل أريحية
_وتقول: أهلاً يا بني

_ جود: مرحباً أمي، كيف حالكِ؟
_ رولا: خير يا بني، تفضل
_ جود: أمي أريد أن أتحدث معك في موضوعٍ قد هجم دون إنذارٍ على حياتي،
وأفكاري الموحشة تتزاحم في رأسي وأظن بأنني تهتُ عن الطريق،
أريد منك أن تصارحيني!!
_رولا: قد أشغلت بالي يا بني تكلم؛
_جود: أمي أظن بأن زوجتي ماريا تخونني، ومحبتها لي فقط ظاهرية وزوجية وليس من قلبها وصونها لي يتلاشى.
لسقط السماعة من يدها المجعدة وتغوص في صمتٍ تام، عند لحظة عودتها لزمنٍ قد دفعت الكثير من عمرها للخروج منه حيةً.

كيف للدنيا بأن تدور في هذه السرعة؟!
كيف لذنوبنا أن يتعاقب عليها أحبائنا؟!
صدق من قال /كما تدين تدان/.
_جود: أمي هل أنتِ معي؟!
_ رولا: نعم بني،
أظن بأنك تبالغ وتظلم ماريا، لا يوجد بما يسمى الخيانة.
عندما أنزلت سماعة الهاتف لإغلاقها،
قد نزل معها العديد من الدموع لإغلاق عيونها تحت زجاج نظارتها.
الدنيا غالباً تكون عادلة وخطأنا اليوم قد يتعاقب عليه أولادنا غداً.
دولاب الإحباط يدور من أعمالي إلى حصادي.

*****

(الفصل الأول)

جنوب شمال الوطن العربي ١٩٨٠

موقعٌ جغرافي حيث يوجد الكثير من القبائل التي تستوطن المكان.
في إحدى تلك القبائل، السماء تضارب صوت رعدها مع صوت صراخ أمٍ في لحظة ولادتها،
وتتخالط مع دعوات الأب وهو في انتظار النعمة التي أنعمها الله بها.
ليؤنس ظلام الليل صوت طفلةٍ قد ولدت على دنيا فيها تعيش الهنا والشقى.
_دايّة الولادة: مبارك لك يا أبا عامر قد رزقت طفلةٍ جميلة وممتلئة الجسم.
_ الأب عامر: الحمد لله على ما آتانا،
لألقي نظرةً على من ستحمل اسمي بعد اسمها.
يا أختي ممكن سؤال؟!
_داية الولادة: تفضل يا أبا عامر!
_أب عامر: ما هذه العلامة السوداء على رقبتها؟!
_داية الولادة: لتسأل شيخ القبيلة.
ذهب أب عامر حامل طفلته والخوف؛

والإحتمالات تقول كذا وكذا بينما هو من أملٍ إلى إحباط يتراوح، ومن قلقٍ إلى اطمئنان يتأرجح.

_الأب عامر: السلام عليكم يا شيخي، أسف على الإزعاج في هذا الوقت ولكن الموضوع ضروري وكلي أملٌ أن ألقى جواباً يسر البال والخاطر.

_شيخ القبيلة: وعليك السلام ورحمة الله وبركاتوا، تفضل يا أبا عامر.

_ أبا عامر: قد أنعم الله عليي ورزقني طفلةً سمراء اللون ووزنها ممتلئ وعلى رقبتها علامة سوداء، حائرٌ في تلك العلامة.

_شيخ القبيلة: لألقي نظرةً عليها.

مبارك لكَ يا أبا عامر طفلتك قبل ولادتها قد قبلتها الملائكة على رقبتها ووضعت كالشامة الكبيرة، ومن عادات وأقوال القبيلة بأن ابنتك ستكون محظوظةً في هذه الدنيا.

_الأب عامر وعيونه تدمع من الفرح: الحمدلله الحمدلله، من أجل ذلك سيكون بصحبتها ما يتعلق بالقبيلة وسأسميها باسم القبيلة.

(رولا).

رولا الفتاة التي تميزت بالقبيلة بألقابٍ عديدة غير اسمها(الفتاة التي قبلتها الملائكة، الفتاة المحظوظة، الفتاة التي في عنقها شامة) حتى والدتها كانت تقول لها (القهوة بحبة الشوكلا)، لسمارها ووجود تلك العلامة على عنقها.
ترعرت بين عائلتها ومع إخوتها أحمد الذي يكبرها عامين، وعامر يكبرها أربع أعوام. مضت الأعوام والليالي مع كبر صاحبة الحظ، الأيام تسابق جمال رولا وتودع عاماً وتستقبل عام والصفات قد أصبحت مبدأ حياة رولا.

_الأم عامر: أهلاً يا أختي أم أدهم.
_أم أدهم: كيف حالك يا أم عامر؟ وكيف أولادك؟ والتي في عنقها شامة كيف حالها؟!
_أم عامر: الجميع بخير ويدعون لك بالسلامة.
_أم أدهم: أين هم أولادك يا أختي؟
_ أم عامر: عامر وأحمد قد ذهبا مع والدهما إلى الحقل، أما رولا فهي تلعب تحت أشجار الحديقة.
_أم أدهم: نادي لتلك الأميرة السمراء.
_أم عامر: رولا يا رولا، تعالي خالتك أم أدهم هنا.
رسمت ابتسامةً خفيفة على مبسمٍ صغير يخبئ البعض من حبات اللؤلؤ والبعض الآخر قد ضاع، وعيون الريم في

وسعهما وكأنهما عيون نجلاءٍ، قامت من مكانها تارةً تخطو بخطواتٍ هادئة بقدميها الصغيرتين،
وتارةً تقفز لتلامس بروحها غيوم السماء، أوراق الشجر على الأرض وكأن رولا ملكة زمانها وقد فرشت لها الأرض أوراقاً صفراء التي أسقتطها الرياح عندما راقصت شعرها الأسود الذي أستوطن أطراف كتفيها، الشعر الذي يحرس تلك القبلة الملائكية وهي في طريقها تغني لنفسها للعصافير لعالمها الطفولي الذي يجتاز عمر السابعة.

_رولا: أهلا خالتي أم أدهم.

_أم أدهم: يا حبيبتي الصغيرة، تعالي لأقبلك ألف قبلة.

_رولا: خالتي أين أدهم لماذا لم تصاحبيه معك؟

_أم أدهم: لماذا سألتي عن أدهم ولم تسألي عن أمجد؟

_رولا: لأن أدهم يلعبني وأحبه كثيراً، وأحب أن يبقى معي لنلعب سوياً

_أم أدهم: هههه، عندما تكبرين ستكونين عروسة ابني أدهم لتبقي بجانبه إلى الأبد.

_أم عامر: ما هذا يا أختي رولا ما زالت طفلة، وأدهم يكبرها بعشر أعوام، هو يحبها كثيراً لأن الله لم يرزقه بأخت.

_رولا محادثة نفسها: هل سأكون عروسة أدهم عندما أكبر؟ وسنكون معاً ونلعب سوياً.

ركضت نحو النافذة ونظرت إلى السماء كشخصٍ راجي الرحمة فقط. فتحت يداها الصغيرتين وبدت تلقي بهما الدعوات ليصلو إلى الخالق

_رولا: أرجوك يا ربي أن أكبر بسرعة جداً، وأن يقف عمر أدهم لأصبح من نفس العمر ونتزوج.

وهي مع نفسها: آمين.

كلما مرّ العمر كان يزداد الحب والخجل والبعد عن اللعب معه. كان هدفي الوحيد أن أحظى بإعجاب خالتي أم أدهم في كل مرةٍ تزورنا أو عندما نذهب لزيارتها، كنت أريدها أن تحافظ على كلامها الذي كبرتني به وكبرت الحب داخلي حتى أصبح يجري مع دمائي.

ولطالما غفيت وصحيت وأمطرت مطراً أوراقاً وزهوراً، وأنا كان لي دعاءٌ أبيض يحدث به قلبي ولا يسمعه إلا رب السماء (لتجمعني به يا الله).

*****

(الفصل الثاني)

في قبيلة رولا عام ٢٠٠٠

_أم عامر: رولا يا ابنتي استيقظي اليوم ستزورنا خالتك أم أدهم.

_رولا برجفةٍ: خالتي أم أدهم ستأتي.

قمت مسرعةً واللهفة في عيوني، عادةً هذه اللهفة والرجفة موجودة طالما أعرف أنه سيكون حديث خالتي عن أدهم وهذا ما أود سماعه.

وقفت رولا على المرآة لتبدأ بتزين نفسها، لأن أدهم من يوصل خالتي وربما الشوق قد طاف الكون في قلبه مثل شوقها لها.

فتاة قد ودعت الواحد من عمرها وبدأت بصحبة الاثنين، سمراء ناعمة، عيون النجلاء الواسعة وكأنها أميرة هربت من عالم الديزني، تحمل شعراً أسود قد تعدى حدود خصرها النحيل، ودعوةً في قلبها ((يا الله متى يحالفنا ذلك الحظ الجمل ونجتمع)).

وخوفاً يمنعها من الخروج عن العادات والتقاليد بإعلان حبها لابن خالتها أدهم.

تحمل غرام لفكرة وجود شخصٍ ما في هذا العالم يجعلها سعيدة لمجرد النظر إليه فقط.

جاءت خالتي أم أدهم بصحبة ابنها أدهم ويا أهلاً بقليل التلاقي والكثير في قلبي، أصبح شاباً في عمر الثلاثين و ذو شخصية جذّابة جداً، كانت عينيه تحتوي شيءٌ من الجنة لخضارهما وجمالهما طويل القامة،

جلس أدهم مع إخوتي عامر وأحمد في حديقة المنزل،

بينما خالتي وأمي في غرفة الجلوس وأنا كنت أقف على النافذة لأسرق بعض النظرات والمشاهد لأدهم ربما تروي ما حل بي من جفاف، ويهدأ من لوعتي على فراقه الذي لا يعرف به أساساً.

انظر بتمعن كبير لأحفظ جميع ملامحه وجميع كلماته وتصرفاته أريد أن أجمع أكبر مخزن من المعلومات عنه.
لأسافر معه بعيداً في خيالي
ألا يحقُّ لنا بأن نَكون سرمَدينِ بينَ نجّومِ السّماءِ؟! ولِمَ لا عصّفورين عاشقين على إحدى تِلكَ الأشجّار؟! لو كنّا متعلقين ببعضٍ كحبّاتِ النّدى بعد المطّرة الأولى في أيلول وهي على ورقِ الأزهار، لتأتي ونهرب سوياً كالمساجيّنِ من ظُلمةٍ أبدّية وتكون وجهتنا إلى خلفِ الجّبال، حيثُ أشعّةَ الشّمسِ تعلنُ عن إحمرارِ لونها كما تحمّرُ وجنتاي لسماعي أُحبّكِ من شفتاك.

ننتظرُ غُسقَ الفجرِ ليولدَ من حُبِّنا أملٌ، وليكن أملُ الصُّبحِ.
أ أقولَ لكَ أنّني أُحبّكَ قبلَ أن تَجِفَّ البحار ونحنُ على حافة الوديان دونَ جزعٍ أو تَجنُّح من الإنْقهال؟!
وقبلَ الوصولِ إلى المَغبَّة ليكنْ لقائنا في الخيال بعيداً عن الأنظارِ، لأُحبّكَ لمئةِ عام وبقلبٍ قدْ تورّدَ بعدَ الجّفاف.

_ريم: رولا يا رولا

_رولا وهي تحاول الرد دون التفات من المنادي: ماذا هناك

_ريم: ماذا بكِ؟ أين كان عقلك وأنا ناديتك أكثر من مرة.

_رولا: ريم تعالي وسري نظرك بأدهم، هذا الذي حدثتك عنه وكان بطل حكايتي.

_ريم: واو!!! إنه جميلٌ جداً، هذا ابن خالتك؟!

_رولا: نعم، هذا الذي وعدتني به خالتي بأنني سأصبح زوجته عندما أكبر.

_ريم: ولكن يا رولا أنتِ كبرتي الآن، وأصبح عمرك مناسبٌ للزواج.

_رولا: أعلم وأنا في إنتظاره يا ريم، وجهزت كل شيء جهزت نبرتي ونظرتي ولهفتي، وانتظر تلك اللحظة المناسبة التي سأقول له أحبك.

_ريم: لمَ لا تتحدثين معه؟!!

_رولا: لا، لا أستطيع حتى هو لن يتقبل هذا لأنني ابنة خالته.

_ريم: أ يبادلك في المشاعر؟!

_رولا: لا أعلم، ولكنه غالباً ينظر إلي بخجلٍ وحياء،

ريم كيف سأعرف حقيقة مشاعره؟

_ريم: تحدثي معه من حسابي الخاص، وعلى أساس أنكِ أنا.

رولا: أتحدث معه؟؟ أنا ؟!!!

قد استحل الخجل والفرح قلبي ورسمت ابتسامة أملٍ على وجهي.

اقترب الظلام وبدأ قلبي يخفق بشدة لمجرد أنني شعرت بأنه سينتهي هذا الانتظار، خائفة لدرجةٍ أنني بدأت باللعب مع زهراتي / الريحان والنرجس/ أحاول أن ألهي نفسي بترتيب غرفتي رغم أنها مرتبة ولكن الفوضى داخلي.

أمسكت بهاتفي وفتحت حساب ريم صديقتي التي لطالما شكرت ربي على وجودها معي،

فهي كانت الأنيسة المؤنسة والرفيقة الدائمة، بحثت عن حساب أدهم وقمت بإرسال الأحرف الخمسة التي لطالما عددتها خمسة آلاف مرة.

_رولا: مرحبا

بعد ثواني فقط.

_أدهم: أهلاً!!

_رولا: كيف حالك؟

_أدهم: بخير يا ! ريم؟

_رولا: نعم ريم.

وما إن جر الحديث حديث في حوض تعارف، أحببت فكرة أنه يخصني في الحديث، يضحك لي فقط،

يوجه كلامه نحوي دون خوف أو خجل من أحد

كانت كلماته مغرية، شعرت بروحي وهي تقدس أفكاره وصلت لهيام عشقه.

_رولا: أريد أن اسألك سؤالاً

_أدهم: تفضلي !

_رولا: أ أنت مرتبط؟!

_أدهم: لا؛ فقط حظيت من الحب نصيبٌ ولم ألتقي به.

_رولا: أليس لديك أقارب فتيات؟

وأنا في إنتظار أن أسمع أجمل الكلمات عني.

_أدهم: لا، ليس لدي أحد.

كيف لك أن تتجاهل هويتي؟

أ حقاً لا أكون لك شيئاً؟

تمنيت لو أنك ذكرتني بالاسم فقط، لكتبت لك عن حقيقتي

حاولت كتابتها عدة مرات (أنا رولا ابنة خالتك وأحبك كثيراً)

ولم أجرؤ على إرسالها يا أدهم.

_رولا: أ ليس لديك ابنة عمة أو خالة؟

كنت أحاول تذكبره بي، ولكنه صمم على جهلي.

_أدهم: لا

في هذه اللحظة بالذات سقطتُ من فضاء الخيال على الواقع المتحجر، تهشم قلبي تناثرت أجزائي كقطع من الزجاج المكسور.

أوقعتني في حالة الحب من طرف واحد وأنا التي كنت أخيط جرحك في دعائي وصلاتي.

أغلقت الهاتف ولا أعلم كيف تخالطت جميع المشاعر، السعادة الحزن البرود جميعها في نفس اللحظة، في كل مرة كان يتجاهلني كنت أظنه خجولاً ولا يريد التقرب مني من أجل العائلة واليوم إكتشفت أنه لم يكن خجولاً ولا انطوائي هو فقط لم يحبني ولا يتذكر وجودي.

ولماذا سيحبك يا رولا؟

هو شابٌ وسيم جداً ومئات الفتيات التي تتمنى محادثته.

وأنا الفتاة الملقبة بصاحبة الحظ فقط، تحمل تلك الشامة الكاذبة والتي شهدت حبي ووجعي وشهدت تلك الدموع ولم تتركني أو تبتعد عني.

صدقتي يا فيروز عندما رتلتي كلماتك وقلتِ: ما تاري الكلام بيضلو كلام وكل شي بيخلص حتى الأحلام.

قررت أن أقيم عزاءً يليق بخيبة قلبي ودفن ذكرياتي التي تخصني وحدي بعيداً عن عالمهم.

ولكني فشلت وأحببت فكرة تقربه لي، لربما أن يكون هناك أمل ويشعر في وجودي.

انتظر تلك اللحظة التي أعترف له من أكون.

بدأت بمحادثته يومياً، زاد تعلقي به وإعجابي، وهو قد أعترف بإعجابه لشخصية ريم التي أحملها ولا يعرف حقيقتها.

ريم التي رسمتها له بأنها طويلة القامة ومن الفتيات المحظوظات بالعيون السماوية، ولا يمكن للشعراء أن يبدعوا في وصفهما، وأما شفاها الكرزية لهما حكاية ثانية.

أردت أن أكون جميلة في الطريقة التي يحبها.

ولم أتحدث معه فقط من حسابٍ واحد باسم ريم.

كنت أحاول أن املأ وقته كله بي، استغليت تلك الفرصة وصنعت حسابات وهمية، احتليت حياته بالكامل وبأكثر من شخصيةٍ بعيداً عن رولا.

تنكرت لهويتي وحقيقتي من أجلك، خدعت نفسي حتى خسرتها، آمنت في حبك فقط.

كنت أريد أن تعلم بأن هذا الحب لا يطعمني ولا يرويني ولا حتى يؤمن لي مستقبلي ولكنه كان يجعلني أشعر في وجودي وأؤمن في نفسي، ولهذا السبب لم يكن التفريط بك شيءٌ سهل.

بقيت ريم الوهمية أجمل الفتيات بعينيك.

لم أستطع إنكار الطمأنينة والأمان الذي راودني وأنا بجانبك يا أدهم

لو علمت بأن رولا هي من تحادثك وتهتم بك ولتفاصيلك هل كنت ستبقى؟!

كيف لك أن تحادثني من جميع حساباتي ولك شخصيات معددة مثلي.

انسلخت تماماً من ذاتي لأجله، لأجل رجلٍ لو رآني صدفة لتجاوزني كأني شخصاً غريباً في هذا العالم، وفي المقابل لم يفعل من أجلي شيئاً واحداً سوى أنه لم يحب رولا.

ليلٌ خلف ليل وأنا أعد نجوم السماء عند الإنتظار مجاورة زرعاتي محدثة عن شوقي وحبي،

عشت داخل كذبتي وابتعدت عن واقعٍ أهرب منه

وصلت لمرحلة أنه عندما يناديني بريم أجيب لا إرادياً، تعلقت به كالسجين المظلوم ببرائته والشمس بالنهار والقمر مع الليل.

بقيتُ أغرق وأغرقُ معي رولا إلى يوم العزاء الذي أقمته لقلبي عندما تحطم كالقارورة لا فائدة منه.

لا عليك يا أدهم وهل ستحب فتاة لا تعرف شكلها تخليتَ وجودها فقط.

أو فتاة هي لك قريبة ولا تعرف حقيقة مشاعرها.

*****

(الفصل الثالث)

شهدت الأشجار والعصافير تناغمها كم رويت لهم حكاياتك طيلة فترة وجودك معي، كم كانت الشمس تختبئ خلف الغيوم لحيائها من سماع اسمك على شفتاي، بقيت في حلمٍ ولا أفكر في الإستيقاظ حتى يوم الثلاثاء.

كان موعد زيارة خالتي أم أدهم لنا، جاءت خالتي حاملة البسمة والأخبار التي لطالما انتظرتها أخبارٌ سارة لأمي ومدمرة لأحلامي الذي تغاضيت شهوراً وأيام من أجله.

_أم أدهم: البشرى يا أختي أم عامر البشرى

_أم عامر: تفضلي يا أختي أم أدهم أرى السعادة في عينيك !!!

_أم أدهم: أريدك أن تذهبي الأسبوع القادم من أجل زفاف أدهم.

منذ أيامٍ عقدت قران فتاة عليه

_أم عامر: مبارك لكم ما فعلتم، لأيقظ رولا وأبشرها فهي من صغرها تحب أدهم.

_أم عامر: رولا يا رولا، لدي أخبار لك ستسعدك.

_رولا: ماذا هناك يا أمي؟!

_أم عامر: إحذري زفاف من الأسبوع القادم وسيسعدك هذا الخبر!!

_رولا: لن أكون سعيدة إلا في زفافي أنا، قولي من؟

أم عامر: ابن خالتك أدهم

جاء الكلام محطم لعالمي وروحي كانت صدمةً قد جعلتني أشعر بأن الحظ الذي تحدثوا عنه قد ألقى بي اللعنة.

_رولا: حقاً!!! أدهم ؟!!!

كنت باردة جداً عكس الذي كنت أتوقعه والدمعة وقفت أمام مقلة عيني معلنة نزولها عند خروج أمي، أطرافي متخشبة وكيف لا أكون كذلك وأنا أرى المكان الذي تمنيته قد استوطنته امرأة غيري وبكامل رغبة أدهم؟!

كنت صبورة لدرجة أنه يخيل للآخرين أنني لا أمتلك مبرر للغضب، أنني نثور فجأة دون سابق إنذار، كنت أجيد الصبر في هذه المحن حتى بدا للجميع أنني راضية وسعيدة، أين وعد خالتي؟ أين حظ تلك الشامة؟

كنت أتمنى لو أن أدهم قد ودعني بحثت بين حروف رسائله عن كلمة مغادرة ولكن كان يرسل لي الرسائل العادية والمعتاد يومي عليها،

كنت أعلم جيداً بأن ريم الوحيدة التي تحارب ساعات عمله وأوقاته لتبقى تحادثه أكثر.

كيف لم تخبرني بأنك ستكون لغيري؟!

ربما أكون امرأة سيئة جداً وأجعل تلك الخطوة من صالحي وابقى معك بحجة أنني لا أعرف شيئاً عن سبب غيابك ولم تخبرني أنت.

لم أذهب لزفاف أدهم، فلا أحدٌ يشعر بوجع صبية البلد حين تتطر لمخالطة امرأة سرقت منها مكانتها باسم النصيب.

جاءت خالتي أم أدهم لزيارتنا بصحبة زوجة أدهم (تولاي) كانت امرأة جميلة جداً، بيضاء البشرة ذات العيون الزرقاء قد فشل جميع الشعراء في وصف شفاها ولتلك القامة الجاذبية، مرتدية فستان قصير لا يتجاوز ركبتاها تحمل حقيبة من لون مجوهراتها كانت كما رسمت ريم لأدهم، النسخة التي لا يعرفها سوى أنا.

كانت تولاي هي الحديث الرائج بين العائلة، وكيف لجمالها أن يأخذ الأولوية في الجلسات العائلية.

ذهبت إلى غرفتي بعد تركي للمجلس الذي خدش جميع أطرافي وأذني بالحديث عنها، نظرت إلى المرآة جميع الخراب بعيني لِمَ لا يحبني أدهم؟!

هل أنا الوحش الذي قبلته تلك الملائكة؟

كنتَ لتحظى بأجمل معاني الحب لو أنك لاحظت وجودي.

تذكرت قول نزار قباني (تتقبل المرأة فكرة أن يكون بينها وبين من تحب ألف مدينة، ولا يكون بينهما امرأة واحدة).

الساعة تشير إلى ما بعد الأميال من الآلام والمئات من الأفكار الشيطانية والموحشة، بدا لي بأن الوقت متأخر من الليل أشرد في كوب القهوة الفارغ نصفه ونصفه الآخر قد جعلني مستيقظة لذلك الوقت،

وأسمع بعضاً من آيات سورة البقرة في ليلة شتائية تنهمر حبات المطر لتطرق على زجاج النافذة كما دموعي على خدي،

لتذكرني بأن هناك شيءٌ ما سينبت بعد هذه الخيبة.

ليقاطع تلك الجلسة مع وحدتي إشعار رسالة من أدهم نظرت نحو هاتفي وأقفلته دون رد وعدت لنفسي.

جلستُ على ركبتاي بعد إرتدائي ثوب صلاتي،

لأوجه وجهي الشاحب نحو بابك يا الله ولنتحدث قليلاً في هذا الوقت القريب من الفجر في مصباح هذه الليلة، أروي لك حكايات عن كسرة قلب ومن سمائك يهطل المطر وكأنها رحمتك على الأرض، أحرك يداي وكأنني أتحدث مع نفسي

إلى أن اشتد الحديث معي وبكيت لوقعتُ على ساجدة وجبيني يلصق على الأرض بين يديك راجية رحمتك وأن تدلني على الطريق بعد ما تهت.

ذهبت لأخلد إلى النوم بعد تلك الجلسة مع الله، نمت بطمأنينة الجنين في جوف أمه.

قد خنت نفسي حينما ظننت بأنني سأحظى بكل الأشياء الجميلة والتي حلمت بها باسم القدر.

قررت أن ابتعد وأقفل آخر باب لعلاقة تمنيت لو أنها تستمر لآخر يومٍ في عمري،

لكن لم أستطع

كيف لا يشعر الرجل بالخيانة؟!

مثل ما تشعر المرأة، كيف له أن يتحدث مع إحدى الفتيات التي لا يعرف عنها سوى اسمها وبعدها يذهب إلى أحضان زوجته لينام كالعاشق الولهان.

غالباً كنت أشعر بالذنب إتجاه تولاي، فهي بريئة وبريئةٌ جداً ليس لها ذنب بكسرتي أنا، ولكن وجودها كان يعيدني إلى حقيقة رولا دائماً.

كانت تحادثني في الجلسات العائلية وتحاول أن تفتح حديثٍ حتى وإن كان عن لون فستاني أو طبيعة شعري، وفي كل مرةٍ كنتُ انظر لعيناها وارمي اللوم على نفسي لأني قريبة جداً من شخصيتي ريم ولا أحدٌ غيري يعرف كم أن شخصيتي ريم أم رولا قد أحبت أدهم.

ولو أن أدهم أعترف بي ولو لمرةٍ واحدة كنت سأكسر قواعد القبيلة وأحظى بذلك الحظ.

ولكن تجاهل ورسم أيامه وحياته مع زوجة يرى بها ريم التي رسمتها أنا في رأسه.

لطالما حاولت تولاي مصادقتي ولكن لا تعلم بأن صداقة الأنثى للأنثى مزيفة، النساء تجمعهن الخيبة ويفرقهن النجاح والحب والغيرة!!

كنت أؤمن ببعض الصديقات إلى أقصى حد، ولكن للأسف كانت صداقتي مع تولاي عابرة في طريق مروري لأعرف أخبارها مع أدهم وكم هي سعيدة معه وكم قدم لها من حب وحنان، لأكتشف كم أن أدهم رجلٌ بعيد عن الرجولة.

انظري جيداً حولك يا تولاي لن تري سوى فتاة تحاول أن تصل نار المنافسة حد الجنون على قلب أدهم فتتمنى لو تحرقك ولا تصلي للحب الذي هي شعرت به.

فلا تتفاخري بعدد صديقاتٍ لا يحصى لتعتقدي بأنك محبوبة وإجتماعية وقادرة على بناء الكثير من العلاقات في عائلتنا.

كيف أصبحت حياتها قضيتي وهمي الأعظم؟!

ولو علمتي حقيقتي ستدركي بأن صداقتك معي مجرد فقاعة صابون لا أكثر.

مرّ عاماً كاملاً على العيش في تلك المتاهة المليئة بالكذب والخيانة، لا أعرف من الخائن في هذه اللعبة،

أ ترى تولاي التي سرقت أدهم مني؟!

أم أن أدهم الذي تركني ورحل مع أخرى؟!

أم أنا التي بقيت مع أدهم رغم وجود أخرى؟!

أقبلت تولاي مع طفلتها الصغيرة التي أصبح عمرها شهورٌ فقط.

أستأذنت منها لأحمل طفلة من صلبك، أغرمت بها كثيراً فهي تشبهك كثيراً في شعرها البني وعيناها الخضراء، أما تلك العقدة في حبيتها كما أنتَ.

نظرت لها لطالما حلمت بأن أكون أمها، ناغيتها بلطافةٍ فرسمت على وجهها ابتسامةً قمرية.

_رولا: طفلتك جميلة جداً، ليحميها الرب لكما.

_تولاي: شكراً حبيبتي، عقبال ما أفرح فيكي

أظن بأنني أنا من أخذ دور الشريرة، تولاي كانت لطيفة وطيبة القلب.

_رولا: ماذا سميتم الطفلة؟!

_تولاي: سماها والدها ريم.

_رولا: ريم؟؟!!!

_تولاي: نعم ريم، والدها يحب هذا الاسم كثيراً.

رولا ما هذه العلامة على رقبتك إنها كبيرة؟!

_رولا: نعم هذه شامة يدعى عليها محالفة الحظ.

_تولاي: أتمنى أن تحظي بنصيبٍ جميل

أدهم لا يحب الاسم وإنما أحب شخصية ريم التي ما زال يتواصل معها ويحادثها كل يوم، محاول رمي الحجج عن سبب غيابه.

وهل ما زلت للآن يا رولا تظني بأنه هناك أمل؟! ألا تري كيف يمضي أيامه دونك دون الإطمئنان عليك، دون أن يفاجئك

مرة في صوره أو رسائل حبه يخبرك بها أنكِ تتواجدي في أفكاره وأنه لربما يحبك ولا يريد الإبتعاد عنك،

ألم يكفيك أفعاله لتبتعدي دون عودة؟ ألا تشعري بأنك لم تكوني كافية لشخصٍ أغرقته بالحب ولم يبادلك نصف شعورك حتى، أضعت رولا من أجل من؟ رجلٍ !!!

وقفتُ على المرآة الفتاة التي ابتعدت عن نفسها وشخصيتها من أجل رجلٍ كذب عليها،

كان هناك ألف طريقة لأدمر بها صحتي ونفسيتي ولكن أنا من أخترت أن أبقى بجانبه.

أنتِ تنحبي متل ما أنت.

جهزت جميع ذكريات أدهم من محادثات وصور وقمتُ بحذفهن، فجأة تغاضيت عنك ومشيت يا دعوةً لحوحة كفاني الله خيرها وشرها.

لم يعد تجاوزك ونسيانك اختيار يا أدهم قد أصبح فرضٌ عليي.

من أرادني يحب رولا لا يحب ريم.

لقد ركضت طويلاً تجاه الأشياء التي بإعتقادي أنها ستكون ملكي ولكن توقفت عن ذلك، لقد تعبت وشيءٌ ما بداخلي صرخ يكفي حتى أجزمت أني لو قضيت عمري كله أركض لن أصل،

أصبحت أنظر إلى كل الأشياء كشيءٍ لا معنى له، أنظر إليها جيداً وهي تذهب مني.

توقفت خشية أن ينتهي عمري في اتباع شيء لن أمتلكه أبداً.

كسرت شريحة موبايلي وبدأت بحياة جديدة بعد مجازر ومحاولات ودموع وضحكات، سهرات ووعود، مشيت الآن صبية حرة عشرينية جاهزة للحياة والعيش بسلام.

لدي ما يكفيني من الخبرة العاطفية التي اكتسبتها في فترة حبي لأدهم.

أضاء هاتفي مستقبلاً أحد إشعار رسالةٍ لأتفاجئ بأن تولاي من أرسل لي.

_تولاي: رولا... أنتِ هناك؟!

لا أعلم لِمَ أمسكت قلبي بيدي؟ وذهبت جميع أفكاري نحو اعتقاد بأن تولاي عرفت كل شيء، وأنها ستبدأ بالإستجاوب رغم أنني كنت على يقينٍ بأنني سأنجو منك، ففي كل مرة كنت على وشك أن أكشف كان حظي يخالفني.

لا لن أرد عليها

فأنا اليوم في حاضري أقف على ناصية أحلامي من جديد قوية وفي كامل قواي العقلية فقط.

لأنني أتذكر أنه منذ فترة دفنت في إحدى زوايا الماضي قلبي.

عندما التفت نحو الماضي لفتةً أشعر بأنني خرجت من مذبحة عارمة.

وقت قد ملأ أيامي بالحزن والأسى، اختبارات الحياة تهرولت على عاتقي وأصابت حبي، اليوم أرى بأنني شخص صبور خاض جميع المعارك وخرج منهك بعد الإنتصار، حامل معه

أكفان من الذكريات والتضحيات، هل لي بالبقاء في هذه القوة

إن كنتِ ستواجهيني عن محبتي لزوجك؟!

أم أن تلك الأيام قد سلبت طاقتي كلها؟

قامت بالإرسال لي مجدداً

_تولاي: رولا أريد أن أتحدث معك.

جمعت جميع أجوبتي واستعدت لأي سؤال تواجهني به.

_رولا: أهلاً تولاي، تفضلي

_تولاي: كيف حالكَ؟ أريد التحدث معك بأمرٍ ما.

_رولا: بخير؛ تفضلي أسمعك

الخوف قد بدا على وجهي ويداي تتراقص على لوحة الكتابة

وأجوبة تراكمت فوق بعضها.

_تولاي: ولكن أريده أن يبقى بيننا

_رولا: ماذا هناك؟!

_تولاي: لا أعلم كيف تغير أدهم وأصبح مكتأب إلى هذا الحد ولا يريد أحدٌ بجانبه، وليس لديه أمل بشيء، لا يذهب للعمل ولا يتقرب من طفلته الوحيدة.

_رولا: لماذا أصبح هكذا؟ ومنذ متى؟!

_تولاي: منذ فترة قصيرة، جميع ستورياته حزينة وجميع كلماته بائسة.

عندها عرفت بأن أدهم أشتاق لريم، والشوق قد أكل الفرح والراحة في حياته

طعم الانتصار هذا أم طعم الملامة على نفسي لأنني خربت حياة تولاي الفتاة الجميلة وذنبها أنها قبلت بنصيبها.

لا أعلم إذا كانت تولاي تعرف عني أم أنها تحاول جرّ الحديث مني وتسحب كلام، لا أعلم لِمَ اختارتني أنا بالتحديد للتحدث عن وضع أدهم.

_رولا: ربما من عمله

_تولاي: لا أظنه قد أحب غيري.

_رولا: ربما، وارد كل شيء

كنت أعيش وأكتب كل كلمة عارفة أين أضعها وكيف أواسيها محاولة إصلاح ذنبٍ قد ارتكبته بحقها دون علمها،

كان المطر قد بللا وجنتا غيمة

آه يا غيمة!! كم ذقتِ من علقم الفراق والغيرة.

ولأن لا أحد في القبيلة سيتقبل ما فعلت بأدهم وكيف كنت الطرف الثالث،

أعلم جيداً أنه لا يوجد شخصٌ واحد على هذه الأرض يتفهم مشاعري وحبي

ما هو السبب الذي تعرضت له لجعلي وحشة هكذا؟!

جميع من حولي سيلاحظ الخراب الذي إرتكبته، ولا أحد سيسأل لماذا فعلت هذا؟! لا أحد يعذرني

لأننا جميعنا ننظر إلى الكأس الذي يكسر ولا أحد يلاحظ رجفة اليد، صفنة العينين، لا يسمعوا الإنكسار الداخلي.

لا أستطيع التعري عن حقيقة ما يحصل مع أدهم،

عند انتهاء حديثي مع تولاي وطبعت في رأسها بأنني إنسان لطيفة وطيبة القلب.

أطفئ الأضواء وأخيراً باستطاعتي التعري مما أنا عليه، وابقى أنا كما ربي خلقتني بزي خيبتي، لأجمع ريم وورولا معاً.

انزوي على سريري أدسّ رأسي تحت الغطاء، أتقوقع كما كنت داخل رحم أمي،

أغلق هاتفي وأحتضن جسدي بيدي،

أبكي وأبكي على نفسي

محاولة أن لا أتذكر شيئاً ولكن غلبتني الذكريات، وهل ما زلت إلى الآن يا رولا تظني أنه هناك أملٌ؟! أ لا تري كيف يمضي وقته وأيامه دون الإطمئنان عليك؟! دون أن يعترف بحبه لرولا، دون أن يفاجأك برسالة يخبرك بها أنكِ تتواجدي في أفكاره ولا يريد الإبتعاد عنك،

ألم يكفيك أفعاله لتبتعدي دون عودة؟! ألا تشعري بأنك لم تكوني كافية لشخص أغرقته بالحب ولم يبادلك نصف شعورك حتى؟!

خيبتي الألف ورجوت الله أن تكون الأخيرة ولكن هذا ما يحدث عندما يعاد نفس المسلسل كل مرةٍ.

كنت على يقين بأن أدهم لا يستطيع نسياني، لا أحد يستطيع أن ينسى شخصاً أعطاه هذا الكم الهائل من الحب لن يستطيع قلبه التغافل عن كل ما قتله لك.

*****

(الفصل الرابع)

كان اسيقاظنا مغير لمصيرنا جميعنا، عمل والدي خارج القبيلة قد غير حياة الجميع، كان ذلك سبباً كافياً لأبتعد عن نظر تولاي وأدهم.

هجرنا القبيلة وأنا لا أحمل سوى الذكريات، عند وداعنا لأقربائنا وأدهم الذي كان وجهه متعب وعيناه فيها أحاديث وشوق كبير باحثتان عن الآمان.

نظرت إلى عينيه نظرة الشفقة عليه فقط.

رحلنا بعيداً حتى وصولنا إلى المكان الذي سيعمل به والدي، أخذت أحد الغرف لإستوطنها وابدأ بمخاطبة جدرانها، رتبت غرفتي وخرجت منها لأندهش بعائلتي، أمي حاملة قالب كيك وإخواتي عامر باقة وردٍ وأحمد هدية ووالدي يصفق ويغني وكأني إنجازه الوحيد يناشدون Happy birthday to you وبدأ الجميع بالمباركة لي لوصولي محطة وداع العشرين، الفتاة محظوظةً بحب عائلتها تسع وعشرون عام لهم الحب فقط.

أوهبني ربي في عامي الثلاثين شريكاً قد رأيت بعينيه حبٌ لرولا الفتاة السمراء صاحبة الشامة، كما قال لي بأن تلك الشامة تميزني عن غيري من الفتيات لم يراها عيباً وإنما تميز.

_ضياء: عيد سعيد يا زوجتي الجميلة

_رولا: سعيد معك

كان وجود ضياء في حياتي يجعلني أؤمن في النصيب أكثر من الحب والمحاولات، وأن لكل مرءٌ في الدنيا حصة وهذه حصتي.

كان سنداً صالحاً، داراني في رمش عينه كتفاً ثابتاً لا يلويه شدة. قمر ليالي وشمس أيامي التي أعيشها صديقي ومعصمي وبهجة الحياة.

زاد دلالي ومحبته لي بعد ما عرفت بأنني حامل وسيصبح ضياء أب

مرت الأعوام مسرعةً دون الإلفتات إلى الماضي ولو مرةً.

ظننت بأنني نسيت كل شيء وسيمضي كل شيء دون أن يصيب أحد مكروه

أشعر بالغثيان والدوار

جاء ضياء من العمل وقمتُ باستقباله أنا ونعجنا الصغير عشت دلالٌ وحب يحتوي عائلتي زوجي ضياء وابني جود الذي أصبح عمره عامين، أظن بأنني أحمل أحد أرزاقي بين أحشائي علمت في ذلك الوقت بأن الحظ الجميل اللذين تحدثوا عنه هو القبول بالرضى والنصيب.

عندما ترضى بما آتاه الله لك سيرضيك بأجمل من الذي تمنيته طيلة حياتك.

أنا لا أنكر بأنني بين الحين والآخر كنت اطمئن على خالتي أم أدهم عن طريق محادثة أدهم ولكن كنت قاسية جداً كنت رولا.

جاءت والدتي لزيارتنا وبعد الترحيب بها.

_رولا: أهلاً أمي تفضلي

_أم عامر: أهلا بك يا ابنتي، أين نعجتيا الصغيرة؟!

_رولا: جود بخير ولكنه نائم

_أم عامر: وأنتي كيف حالك يا ابنتي كيف جنينك في بطنك؟!

_رولا: أنا بخير الحمدلله

_أم عامر: جأت كي أخبرك بخبرٍ

_رولا: تفضلي أمي

_أم عامر: نريد العودة لقبيلة رولا، أنا ووالدك بعد سفر إخوتك عامر وأحمد.

_رولا: هل سأبقى وحيدة أنا؟!

_أم عامر: يا حبيبتي زوجك وابنك معك، وسيأتي طفلك الثاني، أنتي اليوم أهل لأولادك

_رولا: حتى لو كان،

الأهل سند للفتاة حتى لو أصبحت أم أولاد، لا يوجد لها جيشٌ يحميها سوى والديها.

_أم رولا: لماذا لا تتحدثين مع ضياء للسفر معنا، والإستقرار هناك؟!

_رولا: حسناً أمي، سأفتح معه الموضوع.

بعد عودة ضياء من العمل

ركض نحوه جود مسرعاً بخطوات غير ثابتة وكأن ملائكة الأرض تسنده كي يصل بخطواته إلى والده،

سيحتاج الطفل ذلك الركض طيلة عمره لأنه يعلم بأن آخرة تلك الخطوات هناك من سيحمله بين أيديه ويرفعه ليكون بحضن الأمان.

فالأب ينسى شقاه وتعبه عند النظر إلى أولاده.

_رولا: ضياء أريد التحدث معك.

_ضياء: تفضلي حبيبتي

_رولا: أهلي سيعودون إلى قبيلة رولا، وأنا هنا سأبقى وحيدة وغريبة، وأنت كل يومك في العمل لن تعرف عن دمعتي ولا خيبتي، لن تعلم مدة غصتي عندما أحادث نفسي فقط.

_ضياء: ماذا تريدين أن تقولي يا رولا

_رولا: أرجوك لا تجعلني أبقى وحيدة، لنرحل معهم ونستقر في تلك القبيلة حيث الأقارب والأحبة هناك، لا أريد أن أعيش بعيدة عنهم

_ضياء: سأفكر في الموضوع.

في الصباح التالي

_ضياء: رولا أخبري والدتك بأننا سنرحل معهم، أنا لا أستطيع أن أفرط في طلبك يا جميلتي.

_رولا: حقاً !!!!

كانت علامات السعادة تظهر على ملامحي، شردت للحظة أخيرة في تلك القبيلة بأني خرجت منها بفتاة وغداً ستعود بفتاة أخرى، أتمنى وأتمنى أن يكون أدهم قد سافر بعيداً.

لملمت جميع أشيائي وكل الأفكار بمخيلتي بأنني سأعود إلى الأمان،

لا تصدقوا من قال بأن الوطن أم.

أحمل بين يدي طفلٌ وفي أحشائي أجن لا أعلم إن كان صبي أو فتاة، ذكريات جميلة ودموع شوق لأعود إلى موتي بقدمي.

وصلنا إلى منزلنا بعد أعوام من الغربة، الجدران لم تتغير ولكن تغيروا الجيران.

جاءت خالتي أم أدهم لتسلم علينا والتي بدت ملامحها المجعدة ظاهرة على وجهها الجميل، جاءت بصحبة فتاة تمسكها من يدها لم يتجاوز عمرها الخمس سنوات، شعرها البني الطويل مع عينان خضراويتين، خمنت بأن تكون ابنة أدهم فالعيون ذاتها وأنا لا أنسى عيون أدهم مهما حييت، الفتاة الأولى هي شبيهة والدها فقط.

جلسنا جميعنا بدأت خالتي تحدثنا عن الذي حدث في غيابنا وعن وضع أولادها وكان الدور سيكون لأدهم، بداخلي لهفة لمعرفة أين أصبح!

_أم أدهم: أما ابني أدهم، ها قد مرت تلك الأعوام ولم نعلم ماذا حصل له حتى تغير فجأة، وأصبح يكره زوجته من زمنٍ طويل

والكآبة من سنوات لم تتركه، كبرت ابنته وهو ما زال في مكانه

رولا في نفسها: إلى الآن يا أدهم لم تستطع تجاوز ريم!!!

لم أنم في تلك الليلة وأنا أشعر بأن الذنب ذنبي وحدي ولا أعلم كيف أساعده دون أن أعود إلى ريم بعد دفنها.

وأنا امرأة متزوجة الآن وأم، أ أقول له حقيقة ريم؟!

لا لا من أجل ضياء فأنا حظيت به متأخرة.

يجب أن تحادثه ريم، هي من أدخلته إلى تلك الحالة

ذهب ضياء إلى العمل في الصباح ولم يمنعني تأنيب ضميري من وضع الرقم مرة أخرى والإتصال بأدهم.

_رولا: مرحباً أدهم

_أدهم: أهلاً، من معي؟!

_رولا: هل استطاعت تلك السنوات أن تنسيك هذا الصوت يا قمري؟!

_أدهم: ريم.... ريم!!!!

_رولا: كيف حالك أدهم؟

كان صوت تجهشه بالبكاء قد جعل قلبي يخفق بشدة ونفسه الذي يضرب سماعة الهاتف يصلني معاتبات وآلام كبيرة.

_أدهم: أنا لست بخير يا ريم، لماذا أختفيتي هكذا؟؟!

_رولا: أرجوك لا تسألني عن شيء

_أدهم: أنا لم أتزوج بسببك

ما زلت تكذب إلى الآن يا أدهم.

_رولا: أدهم أنا متزوجة

_أدهم وهو يصرخ ويبكي: حتى وإن تزوجتي يا ريم لا يمكن أن تتركيني هكذا دون أن تخبريني.

عند سماعي صوت فتح الباب عرفت بأن ضياء جاء، أغلقت المكالمة فوراً وذهبت إلى زوجي بابتسامة بريئة وخلفها خراب ودمار كبير.

سحبت الرقم وأخفيته، وبقي صوت أدهم في رأسي صوت بكائه غضبه

_ضياء: رولا....رولا..!!!

_رولا: ماذا هناك؟!

_ضياء: ماذا بك؟ لماذا أنتي لست معي وطوال الوقت شاردة، هل هناك شيء؟!

_رولا: لا لا ليس هناك شيء

كلّ منا في الحياة له سرٌ لا يستطيع البوح به حتى لنفسه.

ذهبنا لنخلد للنوم، كانت شخصية ريم تحاول قتل رولا بداخلي وقد بات الحنين إلى أدهم يعلو بداخلي،

ماذا سيحصل لو أننا كنا سوياً يا أدهم؟!

عند إسيقاظي بأحد الأيام على صوت مكالمة من أمي بعد الخمسة عشر مكالمة منها، قصفت قدماي من الخوف على أبي، عاودت الاتصال بها عند فتح المكالمة

_رولا: أمي مرحباً هل هناك شيء؟

لم أسمع سوى صوت بكاء وصراخ

أمي هل أبي بخير؟!

لم تنطق بكلمة واحدة، قاطعت مكالمتي وخوفي صوت طرق الباب وخطف تفكيري من أبي إلى زوجي

فتحت الباب مسرعةً وكانت الشرطة على الباب

_ الشرطي: أنت رولا ابنة السيد أبو عامر

_رولا برعشة الخوف والحيرة: نعم ماذا هناك؟

_الشرطي: تفضلي معنا

_رولا: إلى أين؟! وماذا حدث؟ وأنا لدي طفلين لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان

_الشرطي: لو سمحتي مدام، نحن تم أمرنا بإصطحابك إلى المركز، وأوصي جارتك بأطفالك

_رولا: حسناً

ذهبت إلى مركز الشرطة وحدي لا أحد جواري لا أم ولا أخ ولا زوج وحيدة بشخصياتي العديدة، حاملة تساؤلاتي عن والدي وزوجي وما الذي يحصل

_قائد الشرطة: أهلاً يا مدام

_رولا: أهلاً بك

_قائد الشرطة: من أنتِ؟!

_رولا: أنا اسمي رولا يا حضرة القائد

_قائد الشرطة: رولا !!!!! أم ريم؟!

_رولا في صدمةٍ كبيرة وقد كشفت ملامح وجهها كل الحقيقة.

_رولا: لا يا سيدي أنا رولا زوجة الأستاذ ضياء

_القائد: هل تعرفي لماذا أنتِ هنا يا رولا؟!

_رولا: لا، لا أعرف

_القائد: أين أدهم الآن؟!

_رولا والتوتر قد ازداد على وجهها: أدهم!!! ابن خالتي!!! ببيته

_القائد: لا هو ليس هناك، أدهم ابن خالتك توفي البارحة ليلاً بعد مكالمة مليئة بالصراخ وعادت له حالته الصعبة التي لطالما حاولت عائلته خروجه منها، وبكل بساطةٍ البارحة بعد المكالمة التي جرت معه ليلاً الساعة التاسعة مساءاً لم يستطيعوا أهل بيته السيطرة على وضعه إلى أن أصيب بسكتة قلبية ودخوله في غيبوبة أدت إلى وفاته.

_رولا والدموع تنهمر كحبات المطر من عيناها: أدهم توفي!!!

_القائد: نحن أجرينا البحث الكامل وتوصلنا إلى تلك المكالمة التي أدت إلى وفاة أدهم.

أتى بشريط تسجيل وشغله أمامي.

_أدهم: من؟!! ريم؟! أنتِ هنا؟.

_رولا: نعم يا أدهم أنا ريم

_أدهم: كنت أعرف أنك سوف تتصلين مرةً أخرى

_رولا: وكان توقعك صحيح

_أدهم: أرجوك لنتحدث قليلاً مثل السابق دون زوجك وأولادك.

_رولا: حسناً، تفضل

_أدهم: هل أحببتيني؟!

_رولا: نعم أحببتك قبل أن أتحدث معك

_أدهم: كيف هذا؟!

_رولا: أدهم أريد أن تكون هادئ أريد أن أحدثك في موضوع.

_أدهم: تحدثي

_رولا: أنا أعرفك جيداً يا أدهم، أعرفك واقعياً حتى

_أدهم: كيف؟! من أنتِ؟

_رولا: أنا رولا ابنة خالتك أم عامر

_أدهم وهو في صدمةٍ: ماذا؟

_رولا: أنا اعتذر منك يا أدهم أرجوك كن هادئ

_أدهم: اخرسي، أنتِ مجرد كذبةٍ فقط.

وأوقف الشريط القائد وقال لي بكل برودٍ: أنتِ من أعاده إلى حالته وكنتِ تلعبين في حالة الشاب، لربما يا رولا كنت تحاولين أن يفهم الحقيقة ولكن أنتِ من دفنته بها.

بعد علم زوجي وعائلتي في حقيقتي المخبأة طيلة هذه السنوات، بدا لي أن حبل الكذب مهما طال سيكون قصير.

حولتني المحكمة في السجن لمدة عشر سنوات بتهمة التحرش الإلكتروني وتسبب بوفاة شخصٍ.

أجلس وحيدة في السجن على سريري البعيد عن أولادي وزوجي وحبهم، حولي الجدران باردة والظلمة تحاوطني غريبة جداً.

لم أعد تلك الفتاة المحظوظة ولا القهوة بحبة الشوكلا أنا اليوم المجرمة صاحبة الشامة السوداء العلامة العايبة.

لم يعد هناك من يسند رأسي سوى حائط ومحرمةً على الآخرين.

أردد في قلبي كل ما يحصل كابوسٌ وأنا متعودة على ذلك بعد قليل سيبكي ابني رائد لإرضعه، كيف أبعدوك عن حضن والدتك يا صغيري؟! من المذنب في الحكاية؟

اليوم سأعود نفسي للعيش بين ناسٍ لطالما ظننتهم سيئين؛ ولكن أكتشفت مؤخراً بأن داخل كل إنسان في هذا العالم وحشٌ شرير وصفات سيئة تروي تلك الشخصية الغامضة به.

ولا يوجد إنسان في هذا العالم يتعمد الخطأ دون سببٍ، وكل خطاء مبرر من وجهة نظره.

عاشرت أصدقاء وأمهات وكبار وحضرتُ جنازةً أيضاً.

تعرضت للمشاكل وللمرض

بقيت اسأل نفسي كل ليلة هل أنا رولا أم ريم؟! لربّما تجمدت أطراف أناملي بسبب البرد أو ربّما من الندم، وما أصعب من ذلك الشعور الذي يسمى بالندم.

أ كان أدهم مجرم لهذه الدرجة في عالمي؟! حتى أنه تعاقب بتلك الطريقة الوحشية

كم من فصلٍ وأيامٍ قد جاوروا عمري، أ ترى كم أصبح عمري الآن؟! آلاف السنين أم عدت طفلةً وانطر الخروج من رحم أمي.

أربع أعوام بدا الكبرُ ترسم على وجهي ويداي، أظن بأن ابني جود قد أصبح ولدٌ صبي كبير ودخل المدرسة وهو الآن لديه أصدقاء وعالم جديد بعيد عن والدته، ورائد طفلي الرضيع الذي أصبح يركض كالشبل الصغير،

أولادي لربما يركضون اليوم إلى أحضان أمرأة أخرى وينادوها أمي،

ذلك هو الوجع الحقيقي، ليس الحب من طرف واحد، وإنما تلك أوجاع الحب السخيف جميعها سخيفة ووهمية.

دخلت ألمى التي ترتدي ذي الشرطة وعيونها كانت تشع ناراً يخاف منها الأسد لو رآها، وكما لقبت بأخت رجالٍ قامتها العريضة وصاحبة الشخصية الأولى ويهاب منها الجميع.

_ألمى: رولا، لديك زيارة

بعد أربع أعوام أحد ما تذكر بأنني على قيد الحياة، وأمٌ قد التوت على صغارها قد تلف قلبها شوقاً، من الذي سيتذكرني بعد تلك الأيام والجريمة التي ارتكبتها؟!

ركضت مسرعة نحو غرفة الإستقبال وكلي بأمل أن أضم طفلي لأتنفس من رائحتهما.

رأيت صديقة أيامي وونسي ريم.

_ريم: رولا!!!! كيف حالك يا رولا؟

رولا والدموع تضحك شوقاً لأيامٍ كنت أقف على النافذة بجانب ريم وكل همنا متى ننتهي من تطيرز العبايات لأمهاتنا.

_رولا: ريم، أنا بريئة

_ريم: أعلم يا رولا، أعرف كم كنت تحبي أدهم وأعرف الذي حصل.

_رولا: ريم أين كنت كل هذه الأيام؟!

_ريم: بعد سفرك مع عائلتك تزوجت وسافرت إلى خارج القبيلة، ولكن عندما عدت أصابني الجنون بما حدث معك

_رولا: ريم، أرجوك جاوبيني هل رأيتي أطفالي؟!

_ريم: نعم رأيت جود ورائد إنهم مثل الملائكة في الجمال، وتعلمي شيئاً عرفت رائد دون أن يخبرني أحد بأنه ابنك؟!

_رولا: كيف حدث هذا؟!

_ريم: لديه نفس علامة الحظ التي في عنقك

_رولا: لا تقولي علامة حظ قولي علامة النحس.

إن حدث اليوم وسيحالفني الحظ هو رؤية أولادي.

_ألمى: انتهت الزيارة.

_رولا: ريم أرجوكي في المرة المقبلة رافقي أولادي أريد رؤيتهم، وقولي لتولاي زوجة أدهم بأن ما حدث لم يكن ذنب أحد.

_ريم: حسناً ولا يهمك، انتبهي لنفسك جيداً.

عدت إلى حجرتي الباردة والفرح يزين وجنتاي والأمل بأن ألتقي بأولادي قد أقترب حتى لو تأخر موعد إفراجي.

_سعاد أتت نحوي وجلست بالقرب من سريري وتمعنت بالنظر إلي وأنا مستلقية ومبتسمة وكأني طيرٌ حر فوق الغيوم يفرد جناحيه إلى أشعة الشمس البعيدة.

_سعاد: أرى الإبتسامة على وجهٍ كان عابس طوال الوقت!!!!

_رولا: نعم، قابلت صديقة قديمة لي وهي ستساعدني بأن ألتقي مع أولادي.

_سعاد: لقد فرحت لك كثيراً، وأمل أن تلتقي بهم في أقرب وقت، بعد الولد صعب.

كانت ترافق تلك الكلمات غصة مختبأة خلف ابتسامة كاذبة.

_رولا: سعاد!! أريد أن اسألك عن شيءٍ.

_سعاد: تفضلي، اسألي ما شأتي فأنتِ الوحيدة التي وقفت بجانبي لأتعود على هذا المكان

_رولا: ألديك أولاد؟

_سعاد: نعم لدي ولدين وبنوتة صغيرة

_رولا: وأين أولادك الآن؟!

_سعاد: علمت بأن ابني الكبير فادي قد رحل مع أقارب أمي، وابني الصغير مع ابنتي وهم الآن مع زوجة والدهم.

كانت تتحدث سعاد والآم يختبئ بين الكلمات وبين الحروف، أرى الأسى من لمعة عيونها حتى لو خبأت دموعها كم كانت امرأة قوية حتى أنها تحدثت عن أودلاها دون أن تزرف دمعة واحدة حتى.

_رولا: تشردتي أنتِ وصغارك ومن السبب؟!

_سعاد: زوجة طليقي السابق أبو فادي

_رولا: لماذا أنتِ هنا؟!

_سعاد: ألبستني تهمة سرقة مجهوراتها، وفرقتني عن عائلتي وصغاري.

_رولا: ولكن هذا ظلم

_سعاد: ومن قال لكِ بأن الحياة لأشخاصٍ مثلنا؟!

نحن حتى الحلم ندفع له مصاري

نحن من يقولون عننا الجبناء والأغبياء،

هذه الدنيا فقط للعبادة والشقاء، وعند الشقى لابد من عبادة الصبر وعدم اليأس، وأنا مؤمنة بأن ما بعد الضيق الفرج.

كم من مظلومٍ يدفع ثمن صمته؟! كيف للحياة أن تظلم أبرياء وتحملهن همٍ دون أذية أحد؟!

أ هذا ما يسمى ببلاء الله لنا؟

كل مسجون له حكاية حزينة وكل واحدة تخفي أوجاع قد لا يحملها جبال وهم بحاجة إلى طير ليحمل تلك الغصات من قلوبهم ويطير بها فقط.

أرجوك يا ربي أن ترحمنا وأغمضت عيناي لأنام بعيداً عن عالمٍ قد رسمته بعقلي وخيالي أعيش به لوحدي دون أن أشاركه مع أحد أطفأ ذلك العالم فقط عند خلودي للنوم.

_أدهم وهو محاول الركوب في سيارته: سأخذ أطفالك يا رولا، لن تري أطفال مرةً أخرى

وأنا محاولة الإمساك به

_رولا: أدهم أرجوك، أرجوك أترك أطفالي لا تحرق قلبي عليهم

استيقظت من نومي والعرق على جبيني والرعب قد تلبسني بدأت بقراءة السور الصغيرة(المعوذات) وشربت الماء وقمت لأقف على النافذة المشبكة جيداً.

لماذا يسجوننا داخل القبضان والأشباك ونحن من الأساس سجناك الحياة.

جميعنا يتألم الحر والسجين، الجميع الحياة لا ترحمه.

*****

(الفصل الأخير)

فتحت دفتري لأكتب رسالتي الأخيرة اليوم في السجن، قد مرّ على وجودي هنا تسع سنوات وثلاثة مئة وأربع وستون يوماً غداً ستتم محاكمتي الأخيرة وسيتم الإفراج عني.

كم تحدثت مع تلك الجدران، شكراً لك أيتها النافذة لسماعك جميع أحزاني، وأنتِ أيتها الوسادة شكراً لأنك تحملتي تلك الدموع،

أنا أعلم بأن جميع الأشخاص هنا كانوا عائلة بالنسبة لي وودعت ناساً كثيرة واستقبلت ناساً وسيكون مكاني فارغاً ولكن هناك أمي تنتظرني في الخارج لإستقبالي مع ريم فهي من ربت أولادي بعد دخولي السجن ووفاة أبي لم يكن عائق في طريق تربية أولادي ورحيل ضياء مع زوجته الجديدة.

ومتأكدة بأن هذا الموقف الذي لطالما رسمته طيلة هذه السنين، لأن ريم أقنعت الجميع بأن ما حدث كان نصيب.

غداً سيكونوا أولادي شباباً

جود صاحب العمر اثنا عشر عاماً ورائد عشر سنوات، لا أصدق لحظة أن أضمهم إلى بين أضلعي، أنتظر الصباح واللعنة على ما يسمى بالإنتظار،

وساعات الليل موحشة جداً بعد الإفراج عن سعاد وسعيدة من أجلها وبأنها بعد العديد من المحاولات قامت بتبرأة نفسها فهي محاربة شجاعة حاربت من أجل صغارها وأعادتهم تحت جناحيها.

فكل ظلمٍ سينتهي.

وبعد كل ليل هناك ليل هناك شمسٌ ستشرق بعالمنا والشرط الأساسي لهذا هو الأمل وعدم اليأس.

يوم الإثنين الواقع في 6/2/2021

القلق يحيط المكان، أحمل أطناناً من المشاعر واللهفة للقاء الأحبة بعد عشر أعوام، كيف أصبح هذا العالم بعد موتي طيلة هذه السنين وإحيائي؟!

عشر أعوام هناك من مات وعاش وتزوج وتطلق وغادر وعاد هناك من كبر وأنا غائبة.

وضعت بيدي تلك الأساور الحديدية (الكلبجات)، لم يكن هناك أساور للزينة فقط. هذه الأساور التي عصمت حياتي التي مضى عليها فجوة الأربعين.

سرت بعد توديعي لأهلٍ لي في السجن، سيكون مكاني في قلوبهم وذكراهم،

باللرغم من جمال لحظة الإفراج هناك لحظة الوداع وبأن أحدٌ في هذا المكان لن يكون موجود بعد اليوم.

خرجت إلى حريتي وأهلي على حسب حسابات المحكمة فأنا سجنت عشر سنين بالضبط.

أظن بأن الأحلام تتحقق ولكن ليست كما ترسم، وإنما كما كتبها الله، ربما تحلم بالطمأنينة وترسم خطة في رأسك، والله يريد يرسم لك خطة أخرى.

كانت المفاجأة بأنه أول من إستقبلني ريم إبنه أدهم التي تبلغ من العمر خمسة عشر عاماً، قد أصبحت شابة جميلة جداً كما لو أنها تولادي ولكن عيناها تشبه عينين والدها وأنا من تعرف عيون أدهم جداً.

أمي وأولادي قاموا بإستقبالي وإعادتي إلى منزلي الدافئ، الذي تغير فيه تفاصيلٍ كثيرة، لم يستقبلني أخي عامر وقام بطردي من المنزل.

أنا هي من كانوا يقررون مصيرها بسبب أدهم.

عانيت طيلة حياتي بسبب ذلك الحب حتى وبعد محاولة أن أكون جديدة سيكون هناك شيءٌ معلق من ذلك الماضي.

من قال بأن الماضي لن يعود هو دائماً يرافقنا، دائماً نتعاقب على أخطاء الماضي طيلة عمرنا، حتى وإن تبنا إلى ربنا لن يرحمنا البشرية.

دخلت السجن بسبب شخصية ريم، وها أنا اليوم أحكم بالبعد بسبب أخي.

لم يكن لدي سبب لدفاع عن نفسي فقط سئمت بتبرير نفسي وكلّ شخص له طاقة وأنا اليوم في نفاذ طاقتي كلياً.

أنا في مرحلة القبول، القبول في خطأي نعم أخطأت وهذا أمر وارد لأنني إنسانة،

لمَ يتوقعون مني الجميع بأنني ملاك العلامة السوداء وإني سأكون يوماً ما أحسن البشر فقط لأن الملائكة قبلتني، إلى متى سنصدق تلك الخرافات؟!

لمَ الأخطاء ممنوعة عليي؟!

والجميع يظن بأني إمرأة غير صالحة

هل أنا ممنوعة عن التوبة؟!

هل سأكون من المغضوبين عليهم طيلة عمري؟!

عدت أيام وأنا أعيش أجمل اللحظات مع أطفالي لتعويض تلك العشر أعوام من دونهم، اليوم أجلس وحيدة بعد زواج ابني جود من ماريا وسفر رائد إلى خارج البلاد.

أنا خرجت من سجنٍ ليس فيه عائلتي ودخلت إلى سجن آخر، وصولي إلى هنا كان سببه أدهم أم أنا؟!

لم قصص الحب التي نعيشها لا تمر مرور الكرام حين تنتهي؟!

لماذا قصتي كان فيها القاتل والمقتول؟!

لن يحدث هذا ما دام الحب يخفى كالخطايا والذنوب.

ظننت الحب كما قرأته في الروايات ولكن الذي إكتشفته من تجربتي الحب كارثة.

*****

(النـهايـة)

أنتِ
تحبي
زي
ما أنتِ
قدرٌ لم يُقدَر قبلة الملائكة
على عُنقِ فتاةٍ مثلي
في عنقها شامة
البتول زكريا
تصميم: ساندي حسان